رينيه لشاتوبريان

بقلم
الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بقسم الدراسات العليا بجامعة الأزهر

تمهيد

لا يوجد من بين الكتاب المحدثين كاتب تشبه حياته الشخصية أو الأدبية حياة شاتوبريان ، لأنها حياة مفعمة بالغرائب والمدهشات التي لا نظير لها في حياة الكتاب الآخرين . ويمتاز تاريخ هذا الأديب الموهوب بأنه وصل إلينا كاملا غير منقوص ، لأن شاتوبريان كفانا مؤونة البحث والتنقيب ، وأعفانا من مهمة التفكير والتأويل ، إذ كتب بخطه مذكرات أثبت فيها كل خطوة من خطوات حياته ولم يغادر كبيرة ولا صغيرة من تاريخه إلا أحصاها في صراحة ووضوح ، وبدقة وإتقان يصلان إلى حد الإعجاز .

بيد أنه ينبغي للمؤرخ المحايد أن يكون قوي التمييز ، سليم الذوق ، مستقيم المنطق ، دقيق الملاحظة حتى يستطيع إبعاد ما عسى أن تكون الكبرياء قد أدخلته في حياته رغم إرادته وقسر رغبته ، لأن بعض خبثاء العصر كان يطلق عليه اسم « الكاذب المخلص » فأما كذبه فقد أتى من أنه كان يخالف الواقع أحياناً حين يتحدث عن نفسه مدفوعاً بالكبرياء أو الخيال . وأما إخلاصه فمنشؤه أنه كان لا يتعمد الكذب ولا يرمي إليه .

على أن هناك شواهد ومستندات أخرى يستطيع المؤرخ — إذا رجع إليها — أن يهتدي في حياة هذا الكاتب إلى أوثق الأخبار ، وأصدق الأنباء . وسنحاول — بقدر المستطاع — استخراج تاريخ شاتوبريان الصحيح من مذكراته الشاملة الفاتنة .

حياة شاتوبريان

ولد شاتوبريان في ليلة ليلاء اشتدت فيها هوج العواصف ، وعلى صخب الرياح من ليالي سبتمبر سنة ١٧٦٨ في مدينة « سان مالو » بمقاطعة بريطانيا الفرنسية ونشأ في قصر « كومبور » العظيم مهد هذه الأسرة العريقة المجد البعيدة في أغوار الماضي نبلا وفخاراً .

نشأ شاتوبريان في هذا القصر المظلم الموحش الذي لا يرى فيه إلا والديه وأخته « لوسيل » وخادمهم ، فكان لهذه النشأة المحزونة أثر عميق في حياته .

قصر عظيم كثير الأجنحة متعدد الغرف والردهات ، متشعب المسالك والطرقات ، مظلم الممرات والمنعرجات ، يخيل إلى الجالس فيه من فرط السكون أنه يسمع دقات القلوب ، ونبضات الأفئدة

ويحس المقيم فيه كأنه فى مقبرة يناجى فيها الأموات، ويخاطب أهل الحياة الأخرى .

هذا هو موضع نشأة شاتوبريان وسر طفولته . وهو لذلك ذو أثر بارز فى كتابته ، بل لا يستطيع المؤرخ أن يفهم حياته ومزاجه دون أن يحيط بوصف هذا القصر الرهيب الذى لا يقدر على تصوير رهبته ووحشته وظلامه غير شاتوبريان نفسه .

بادر الكونت دى شاتوبريان إلى إدخال ابنه فى مدرسة دينية ، وهو لا يزال فى نعومة أظفاره ، فدرس فيها دراسة عادية لا يمتاز فيها بشىء سوى شهرته بين زملائه الصغار ببراعته فى الإنشاء ، وامتياز جمله وعباراته بالجمال الفائق والحسن الرائع .

ولما بلغ سن الرجولة التحق بالحرس الملكى ، وما زال يترقى فى هذا السلك حتى أصبح قائداً ساطعا وكان اسمه فى الجيش إذ ذاك يقترن باسم نابليون فكانا متنافسين ثم التقيا أثناء الثورة التقاء الخصمين المتعاندين بل المتعادين وفى أثناء عمله فى معية الملك لحقته منه كلمة جارحة نزعت من نفسه الميل إلى مرافقته .

ولما انفجر بركان الثورة الفرنسية وأيقن شاتوبريان بأن الملك هالك لا محالة ، سافر إلى أمريكا وانقطع فى هذه الدنيا الجديدة عن فرنسا وحوادثها . وكان ذلك فى سنة ١٧٩١ ، فكان لهذه الرحلة على خياله أثر ضخم ظهر فى المستقبل فى شعره الرائع ، ونثره الساحر ، لأن ليالى الدنيا الجديدة ، وسكونها الشامل لا سيما فى البلاد القريبة من الشواطىء ، أنتجت فى مؤلفاته فكرا قوية تشبه أجواء تلك البلاد ومناخها ، وهذا شىء طبيعى لأن مجرد مرور الخيـال بذهن شاتوبريان كاف لأن يدفعه إلى وصف ما لا يعرفه فى شىء من الدقة التى لا تكاد تختلف عن الحقيقة .

عاد شاتوبريان إذن من أمريكا كاتباً عظيما ، بوساطة ما طرق ذهنه من أخيلة غريبة ، وتصورات عجيبة وقد ظلت هذه الأخيلة مستولية على نفسه ، مؤثرة تأثيراً قيما فى جميع مؤلفاته ومقالاته على اختلاف أنواعها ، وتباين أصنافها ، فأسلوبه رصين ، وجمله قوية ، وتعبيراته فاتنة . وقد رافق هذا الأسلوب كاتبنا طول حياته . فمثل كتابته على أثر عودته من أمريكا كمثلها فى آخر حياته ، وأسلوبه حين كان كاتباً عاديا كأسلوبه حين أصبح أحد رجال السياسة ، فسفيراً ثم وزيراً .

ولما هدأت الثورة بعض الشىء وزال عهد الفزع ، عاد شاتوبريان إلى فرنسا ولكن مقامه فيها — بسبب اضطراب الأحوال فى ذلك الحين — لم يدم طويلا ، إذ لم يلبث أن اضطرته الظروف السياسية والاجتماعية إلى مغادرة فرنسا فى سرعة واستعجال ، فغادرها إلى بلجيكا ، ثم إلى انجلترا وقد ظل بعيداً عن وطنه عشرة أعوام كاملة لاقى فيها كل صنوف المحن والإحن ، وذاق مرارة الفقر والفاقة إلى حد أن كان يقتات من الحشائش النابتة فى الحدائق العامة .

ولما عضه الفقر بنابه فكر فى أن يعيش من مهنة تدريس اللغة الفرنسية فى انجلترا فنجح نجاحاً باهراً واكتسب من المال ما يكفيه ويقوته .

وقبل مغادرته انجلترا تسلم رسالة تنبئه بوفاة أمه، وتسلم مع هذه الرسالة وصية حارة منها تنبئه فيها من وراء الموت بأنها لا تريد منه أكثر من عودته إلى حظيرة الدين التى كان قد خرج منها متمرداً على عقيدته وتعاليمه ، فتأثر تأثراً شديداً وعاد بعاطفته إلى المسيحية فكتب عنها ما يعلى من شأنها إرضاء لروح أمه .

ولما أصبح شاتوبريان لا يملك من المال ما يستطيع أن يقيم به فى باريس ، فقد سافر إلى إحدى القرى وأقام فيها مع زوجته الطيبة القلب تقاسى إلى جانبه ألوان الألم الناشىء من الضنك والضيق .

وبينما كان شاتوبريان على هذه الحالة فى قريته يعيش مع زوجته إذ انقضت عليه صاعقة من الحزن المبرح والاكتئاب القاتل ، فقلبت كيان حياته رأساً على عقب ، وهدت قوته وذهبت بمرحه وسروره ، تلك الصاعقة هى موت شقيقته المحبوبة التى كانت له كل شىء فى هذه الحياة . وكان ذلك المصاب الأليم فى سنة ١٨٠٤ .

تغير وجه العالم إذن فى نظر شاتوبريان منذ الآن وأصبح بعد وفاة أخته «لوسيل» شقيقة الروح ووحيدة الفؤاد ، ورفيقة الطفولة البريئة ، وصورة الحب الملائكى، ومثال النقاء والصفاء، وروح التضحية والوفاء « لوسيل » التى حين وقف شاتوبريان فى كفة ، وكل أسرتها فى كفة رجحت الأولى على الثانية فى غير تردد ولا ارتباك ، بل فى سرور وسعادة والتى وقفت حياتها على إسعاده وتحقيق هدوئه وابتسامه للحياة وابتسام الحياة له . فلما صدع رأسه وألهب مخه وقلب نظام أعصابه هذا الحادث، كان هو الأول الذى زعزع رزانته ووقفه موقف الخفة والضعف ، فلم يقو على البقاء فى فرنسا ، بل فى أوربا كلها بعد نزول هذه الكارثة على حياته ، فسافر إلى «أورشليم» ماراً ببلاد الإغريق ثم بمصر . ولما عاد من هذه الرحلة كتب كتاباً شيقاً سماه « من باريس إلى أورشليم » وصف فيه كل البقاع التى مر بها وصفاً دقيقاً ، لأن الحادثة الأخيرة كانت قد شحذت ذهنه وألهبت قريحته .

أخذ شاتوبريان بعد وفاة لوسيل شقيقته ينظر إلى كل شىء فى الحياة بمنظار أسود ، فبدل أن يعد تسامح نابليون معه نبلا ووداعة ، اعتبره إهانة واحتقارا ، فاغتاظ من هذا الخيال الذى سكبه التشاؤم الجديد فى رأسه وبدأ ينشىء سلسلة مقالات جارحة لا عهد للناس بمثلها فى فرنسا فى ذلك الحين يشبه فيها نابوليون بنيرون طاغية روما ودكتاتورها المجرم السفاك .

فلما رأى الامبراطور أنه خرج على حد المألوف أصدر أمراً بنفيه من باريس ، وكان فى استطاعته أن يصدر أمراً بإمراره تحت المقصلة ، ولكنه كان معه رحيما إلى حد غريب يتنافى مع قسوة نابوليون وصلابته .

بيد أن أصدقاء شاتوبريان والمغرمين بأدبه ، قد اعتبروا هذا الأمر من نابوليون قاسيا أشد القسوة، بل عدوه جناية لايغتفرها التاريخ مهما طال بها المدى ، لأن معنى نفى الكاتب من باريس فى رأيهم هو القضاء المبرم على حياته الأدبية كلها ، والحيلولة بينه وبين الإنتاج النافع المفيد ، وهذه جريمة لاتعادلها جريمة .

ومهما يكن من شىء فقد غادر شاتوبريان باريس ترافقه زوجته إلى إحدى القرى الصغيرة ، وهناك أقاما معا عشرة أعوام كاملة لأنه لم يستطع العودة إلى باريس إلا بعد سقوط نابوليون ، وكانت هذه الأعوام العشرة التى قضاها شاتوبريان فى المنفى ، أخصب سنى حياته التأليفية، إذ فيها كتب : (١) « من باريس إلى أورشليم » (٢) الشهداء (٣)« مذكرات ما وراء الرمس » وهو الكتاب الذى قلنا إنه ينبغى الحذر مما فيه ، لأن الخيال والكبرياء قد عبثا بكثير من أنبائه وحوادثه . (٤) مؤلفات أخرى ومقالات سياسية كثيرة .

حياته الأدبية والسياسية

لا يكاد نابوليون يسقط ويعود لويس الثامن عشر إلى العرش حتى ينشر شاتوبريان هجاء عنيفا ، عنوانه « بونابارت وأسرة بوربون » . ويبلغ إعجابه بنفسه وبإنتاجه إزاء هذا الهجـــاء حدا يقترب من حدود الغرور ، إذ يصفه لنا بأنه يعادل — فى تأييده للملك — جيشاً كاملاً . ولا ريب أن هذه الحملة اللاذعة التى يشيع بها امبراطورية نابوليون ، توثق العرى بينه وبين لويس الثامن عشر ، ولكن ذلك لا يدوم طويلا ، إذ لا يلبث كاتبنا المتنقل المفرط فى الاعتزاز بذاته ،

المغالى فى التمسك بكرامته أن يختلف مع الملك فتسوء العلاقة بينهما وتتوتر الصلة إلى حد أن يعلن شاتوبريان أنه تخلى عن الملك .

وفى سنة ١٨١٧ يزور شاتوبريان صديقته مدام دى استال فى مرضها الأخير فيلتقى فى منزلها بصديقتها الفاتنة جولييت ريكامييه ، وكان قد رآها قبل ذلك منذ اثنى عشر عاما ، فكان هذا اللقاء فرصة لتوثق العلاقة بينهما .

ومما ينبغى التنويه عنه فى هذا الصدد أن هذه العلاقة لا توشك أن توجد حتى يكون لها من الثمار العملية ما يلفت الأنظار . فمن ذلك مثلا أن جولييت ريكامييه لا تلبث أن تبذل مجهوداً جباراً فى نجاح شاتوبريان ورفعتـه ، وتستخدم لذلك تأثير زوجها وسلطان أصدقائها ومعارفها ، وتضاف جهود هؤلاء جميعاً إلى جهود أصدقاء مادام دى دوراس فتنتج أسمى النتائج وأعظمها فى حياة كاتبنا .

وفوق ذلك فإن جولييت ريكامييه تنزل له عن السيادة فى ندوتها يستقبل فيها من يشاء ويرد عنها من يشاء دون معارضة ولا نزاع . ومن ثم كان هذا التاريخ مبدأ ذلك الدور الهام الذى لعبه شاتوبريان فى سياسة الدولة الفرنسية ، فأصدقاء جولييت يبذلون مجهوداً حاراً فى إصلاح ما بينه وبين الملك . وإذ يبلغون من ذلك ما يريدون يهدفون إلى غاية أخرى لا يزالون بها حتى تتحقق ، وهى تعيينه سفيراً لفرنسا فى برلين ، ويتم لهم ذلك فى سنة ١٨٢٠ . ولكنه لا يصبر على هذا طويلا فيستقيل فى سنة ١٨٢٢ ثم يعين سفيراً فى لندرا . وفى تلك المدينة يستقبل الشهرة والمجد بعد أن صحب فيها البؤس والضنك وقتا غير قصير .

على أن هذا لا يرضى مطامعه التى لا تقف عند حد ، فلا يزال يكافح حتى يظفر بتمثيل فرنسا فى مؤتمر « فيرونا » الذى كان المقصود من عقده تقرير مصير أوروبا عامة

ولكنه لا يوشك أن يرضى عن هذا الظفر ويستمتع بالمنزلتين السياسية والاجتماعية الناجمتين عنه حتى يعلم بسقوط وزارة الأحرار وبإمكان إسناد الحـكم إلى المحافظين الذين هو أبرز أنصارهم الأفذاذ فيستولى الطموح على مشاعره وأحاسيسه ، ويحول كيانه إلى بركان ثائر مضطرب ، وسرعان ما يتم له ما يريد ، فيعرض عليه منصب وزير الخارجية فيمتنع مليا وإن كان يتحرق شوقاً إلى الوزارة ثم يقبل فى نوفمبر سنة ١٨٢٢

وعندما يتولى مهام منصبه يملأ مقعده تماما كما يعبر رجال السياسة فلا يكون صفرا على اليسار ، ولا بصاما ينفذ آراء غيره ، وإنما يحتمل مسئولية منصبه كاملة فيدفع فرنسا إلى أن تساهم مساهمة سياسية وعملية فى الحرب المدنية التى اشتعل لهيبها فى اسبانيا فى ذلك الحين بين أنصار الحكم الدستورى وأشياع السلطة المطلقة فتشـترك فى مناصرة الآخرين على الأولين .

بيد أن الأمور بالنسبة إليه لا تلبث أن تفسد ، إذ أن الملك ورئيس الوزارة — وهما يمقتان كاتبنا لصلفه وكبريائه — يصممان على إقصائه عن الوزارة ويتم لهما ما يريدان فى يونيو سنة ١٨٢٤ . وإذ ذاك تحدث أزمة عنيفة تمزق حياته السياسية وتحوله عن مبدأ الملكية المطلقة إلى الملكية الدستورية ، ليكون على طرفى نقيض مع الملك الذى قد غير مبدأه أخيراً ومع رئيس الوزارة الذى كان من أنصار الحكم المطلق .

وأياً ما كان ، فلا يمضى على إقصائه عن الوزارة أكثر من أسبوعين حتى يشرع فى حملته الصحفية العنيفة التى يبدؤها بمقالات حادة هائلة خليقة بالإعجاب فتصيب فى الصميم رئيس الحكومة الذى طوح بأبرز وزرائه إلى عرض الطريق .

ولا يمضي على ذلك وقت طول حتى يتوفى لويس الثامن عشر ويخلفه على العرش شقيقه . «شارل العاشر» وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ بالنسبة إلى شاتوبريان ، ولكن الملك الجديد يحمل لكاتبنا من الكراهية أكثر من سلفه . وفوق ذلك فإنه يحتفظ برئيس الحكومة السابق فلا يتبدل موقف شاتوبريان قيد أنملة . وحينئذ تستمر تلك الحملة إلى ديسمبر سنة ١٨٢٦ .

وبعد بضعة أشهر من هذا التاريخ تسقط الوزارة ويختار الملك رئيس حكومته من الأحرار فيأبى أن يشترك شاتوبريان فى وزارته ولا يقبل التعاون معه إلا بأن يعين سفيراً فى روما فيوافق على ذلك ويسافر إلى وظيفته الجديدة فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ولكنه يكتب فى الثالث والعشرين من الشهر نفسه إلى مدام ريكامييه أن تعمل على نقله إلى باريس غير أن المصادفة - أثناء ثوائه فى روما - تشاء أن يجرى انتخاب البابا فيبذل جهوداً موفورة لانتخاب أشد المرشحين ميلا إلى فرنسا ويكلل هذا السعى بالنجاح فيضاف ذلك إلى قائمة أعماله لوطنه . وأخيراً يعود إلى باريس فى مايو ١٨٢٩

بيد أن ثورة سنة ١٨٣٠ تنتهى بطرد آخر ملك من فرع بوربون واستبداله بملك دستورى من فرع أورليان فيحدد هذا نهاية الدور السياسى الذى كان شاعرنا يقوم به فى نشاط على مسرح الحياة الفرنسية والذى يمكن إجماله فى ثلاث كلمات وهى : الدين ، والحرية ، والعرش الشرعى .

وإذ كان شاتوبريان نموذجا من نماذج النبل ، فإنه يأبى أن يبقى متمتعا بالمرتبات وألقاب الشرف القديمة فى ظل نظام لا يؤيده ، بل هو فى نظره غير شرعى يستحق التمرد والمروق . وأكثر من ذلك أنه يظل طول حياته يرفض - فى إباء وشمم المنح التى يتقدم بها إليه الملك « لويس فيليب » كما جعل يرد كل مايلوح إليه به البونابارتيون ، لأن السيدة كارولين ملكة نابولى وشقيقة نابوليون الأول ، والسيدة أورتانس ملكة هولندا ووالدة « نابوليون » الثالث كانتا صديقتين لچولييت ريكامييه وكان من الميسور لكل منهما أن تغمر شاعرنا فى بحر نعمائها وحمايتها لو أنه أراد شيئاً من ذلك .

وعندما يتقلص شبح السياسة من حياته يخصص جهوده للأدب فيعكف على تحرير مذكراته التى عنوانها « مذكرات ما وراء الرمس » والتى يبيعها مقدما لينفق على حياته التى صارت - بسبب عزته وكرامته - محدودة الدخل ، ولكنه اشترط ألا تنشر إلا بعد وفاته .

ومما ينبغى ملاحظته هنا أن هذه المذكرات كانت تتلى فصولا فى ندوة مدام ريكامييه فيجد فيها السامعون صوراً صادقة أمينة لمشاهير أهل العصر مما لا يتيسر إلا لموهبة شاتوبريان وفى مثل حياته الطويلة الحافلة .

غير أن النواميس الطبيعية لا تعرف الرحمة ، والسنن الكونية لا تألف الشفقة ، ولا تمت بصلة إلى العواطف والأحاسيس فلا يلبث الفلك أن يدور دورته المحتومة التى يحرك بها رحى الحياة لتطحن هذين الكائنين الممتازين المؤتلفين كما تطحن فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار الألوف والألوف ، ولتسحق قلبيهما العطوفين كما اعتادت أن تسحق من القلوب مالا يحصيه عدولا ينـدرج تحت حصر ، فلا يلبث شاتوبريان وچولييت أن يلاقيا من عسف الشيخوخة وإرهاقها ما لا طاقة لهما باحتماله فتفقد چولييت الفاتنة بصرها شيئا فشيئا ، ويعجز شاتوبريان عن السير على قدميه ، ويصبح أشبه شىء بالطائر الذى أصيب فى جناحيه ، وحيل بينه وبين التحليق فكف عن التغريد ، واستوت لديه الحياة والموت .

وفى ٤ يولية ١٨٤٨ ينطفىء مصباح هذه الحياة المتلألئة النادرة المثال فتحتفل باريس بجنازة العبقرى الراحل احتفالا مهيباً يدل على يقظة الوعى وحسن التقدير .

وبعد أن تفيق چولييت من صدمة الألم تخصص جهودها المتخاذلة السائرة بخطوات وئيدة نحو الفناء للإشراف على نشر مذكرات صديقها العظيم والسهر على جمع مؤلفاته المتفرقة ، ومقالاته المتناثرة .

ولما كان نشر تلك المذكرات قد أسخط كثيراً من الأسر التى عرض كاتبها لأفرادها بالنقد وإزاحة الستار عن أسرارهم وكشف نواحيهم الخفية ، فإن هذه الأسر تطالب بمحو الفصول التى تشوكها من ذلك السجل الخطير القاسى . ومن هذا تتبين صعوبة موقف چولييت بإزاء تلك التعقدات .

ولا يفوتنا — قبل أن نغادر هذا الموقف — أن نسجل هنا أن ندوة هذه السيدة كانت أحد عوامل التماسك الأدبى فى باريس فى القرن التاسع عشر، وأن الكاتب الذى لم يشأ له الحظ أن يظفر بالتقدير فى هذه الندوة يكون سىء الطالع إلى حد بعيد ، لأن مجرد الاتفاق على تزكية أى كاتب ، كان كافياً فى سطوع اسمه فى اليوم التالى لهذه التزكية عندما يتناوله « سانت بوف » فى صحيفته بالثناء بعد تلقى الوحى من هيئة الندوة . ونحسب أن هذا البيان كاف فى إعطائك صورة واضحة عن مقدار التأثير الأدبى الذى استمتعت به تلك البيئة الممتازة التى كان شاتوبريان يعيش فيها ، بل على رأسها يرفع من الكتاب والأدباء من يشاء ، ويخفض من يشاء ، بيده الإزهار والإذواء ، بل التخليد والإفناء . ولولا أنه كان نزيهاً نبيلا لحاق الضرر والشر بكثير من الكتاب الناشئين ولكنه كان يرعى وجه الحقيقة ، ويسجل ما يوحى به إليه الفن الأدبى دون سواه .

ميزة منتجاته

تمتاز مؤلفات شاتوبريان بالعمق والتحليل النفسى ، والتصوير العاطفى ، وبأنها كانت أولى الكتب التى وضعت أيدى القراء على مساوئ العصر التى صورها فى « رينيه » على ما سيجىء ، وبأن حب الطبيعة وتذوق جمالها بارزان فيها بروزاً واضحاً وهذه الظاهرة الأخيرة لم تتضح قبل ذلك إلا فى كتب « روسو » وبرناردان دى سان پيير « مؤلف رواية الفضيلة » أو « پول وڤرچينى » التى نقلها إلى العربية المغفور له السيد المنفلوطى .

كتب شاتوبريان أثناء نفيه فى انجلترا مؤلفا ضخما يقرب من ألفى صفحة ، وعنوانه « الناتشيز » وهم سكان إحدى ولايات المسيسيبى . وبعد أن أتم نسخ هذا الكتاب فقدت منه النسخة الوحيدة التى كان يملكها ، وظلت مفقودة عدة سنين ثم عثر عليها ، وفى أثناء فقدها اقتبس من حوادثها ما جعله موضوعاً لروايتيه الفخمتين « أتالا » التى نشرها فى سنة ١٨٠١ و« رينيه » التى ظهرت سنة ١٨٠٢ والتى هى موضوع تلخيصنا وتحليلنا فى هذا الموجز .

رينيـــه

توشك أن تكون رواية رينيه مجهولة لدى قراء العربية جهلا تاما رغم أنها من عيون منتجاتِ المدرسة الرومانسية على الإطلاق . والسبب فى هذا واضح وهو أن الحظ لم يسعدها إلى الآن بترجمة جيدة كما أسعد روايتى « آلام فرتر » و « رفاييل » .

يكاد النقاد يجمعون على أن هذه الرواية تعتبر نموذجا قيما لإنتاج الرومانسيين وسجلا دقيقا شاملا لمحامد أهل الجيل الذى ألفت فيه ومساويهم ، ففيها يلفى القارىء الأخيلة المحلقــة فى سماء « اللانهاية » ، والأحلام المتغلغلة فى ليل الأبدية ، وملائكة السعادة المرفرفة

بأجنحتها النورانية فى فراديس الهناء ، وشياطين البؤس مهمهمة متمتمة فى غياهب الظلمات وغيابات الجحيم : وفيها يلتقى بالعواطف الحادة والأحاسيس الملتهبة والرغبات الملحة ، والأهواء العنيفة . وفيها يعرف القارئ آلام الحياة وشقاء العيش ، ويذوق مرارة الصعوبات ، ويدرك قسوة العقبات : وبالإجمال : هى لوحة أمينة لذلك العصر الثائر المضطرب المفعم بالقلق ، الملئ بالضجر ، وهو عصر الثورة الفرنسية الهائلة المجتاحة التى كانت بمثابة حد عملاق فصل به التاريخ بين القديم والحديث

لقد تردد فى البيئات الأدبية فى كثير من الأحايين أن « رينيه » بطل هذه الرواية هو شاتوبريان نفسه ، وأن المؤلف لم يزد فيه شيئا على رسمه صورة لحياته الخاصة فى أدق دقائقها ، وأعمق تفاصيلها ، وقبل أن ندلى برأينا فى هذه الشائعة الشهيرة ينبغى أن نلمع إلى هذه الرواية إلماعة عاجلة لنيسر لك الاستنتاج والحكم .

ألف شاتوبريان هذة الرواية فى لندرا (سنة ١٧٩٦) ولما عاد إلى فرنسا نشرها مع « عبقرية المسيحية » فى سنة ١٨٠٢ وكان ذلك قبل انفجار الرومانسية فى فرنسا ، فساهم بها مساهمة فعالة فى نشأتها وانتشارها .

ومجملها أن « رينيه » وهو شاب فرنسى — قد ارتحل إلى أمريكا ليدفن نفسه فى عزلتها ، وانضم إلى قبيلة هندية فى تلك البلاد وعاش فيها عيشة بدائية تتفق مع تلك البيئة . وهناك جعل يقص على الأب « سويل » وهو أحد المبعوثين الكاثوليك فى تلك الأصقاع ، وعلى الرئيس الهندى الشيخ « شالتكس » كيف تخلى عن الحياة العملية ، وعلى أثر أية فاجعة غادر أوربا

وتتلخص قصة هذا البطل فى أنه ولد ونشأ فى قصر عتيق منعزل وسط غابات مترامية الأطراف وفى هذا القصر قضى طفولته ومبدأ شبابه إلى جانب شقيقته « أميلى » التى كانت أسن منه قليلا ، والتى ألف بينها وبينه اتفاق الذوق وتشابه المزاج تأليفاً محكم الأواصر والعرى ، فشبا معاً وجعلا يتقاسمان لذة النزهات ، ويتذوقان حب الطبيعة ، وينعمان بجمال الشعر الذى كان رينيه قد وهبه ذات نفسه منذ الطفولة الناعمة .

بيد أن هذا الهناء البرئ لم يلبث أن ذوت زهوره ، وجفت أوراقه ، فقد توفى والدهما ، وسرعان ما انتقلت ملكية القصر وما إليه إلى أخيهما الأكبر . ولم يكن إذ ذاك بد من أن يوكل أمر هذين الناشئين إلى بعض الأقارب ليكفلوهما ويقوموا على تربيتهما . وقد قلب هذا الحادث كيانهما رأسا على عقب ، وصدمهما صدمة عنيفة قاسية جعلتهما يفيقان فجأة من أحلامهما اللذيذة ، ويهويان بغتة إلى أرض الحياة العملية المليئة بالألم والشر ، والمفعمة بالبؤس والتعاسة :

وعلى أثر انتباههما من دوار هذه الصدمة فكرا فى أن يقذفا بنفسيهما فى حظيرة الرهبانية ليقطعا كل روابطهما بهذا العالم الأسود الشرير ، ويخلصا لمالك الملك المشفق الرحيم . ولكن الفتى لا يستطيع لذلك صبراً ، ولا يقوى على رياضة نفسه على تنفيذ هذا العزم ، وترغب نفسه الجامحة فى الفرار من هذه البيئة المحدودة ، ويشتاق قلبه المحزون إلى مخاطر الأسفار والمغامرات فينفذ هذا التصميم فعلا ويرتحل بعد أن يسجل تسجيلا مشوباً بالألم والضنى أن شقيقته يبدو عليها أنها مستريحة لرحيله إن لم تكن مغتبطة سعيدة .

ومهما يكن من الأمر فإنه يقذف بنفسه إلى العالم الطويل العريض فيزور الآثار القديمة فى مختلف الأصقاع ، ويستمتع بالمناظر الجميلة فى متباين البلاد ، وينعم بالمدن الكبرى ومن يقطنها من العظماء والأفذاذ ويتأمل كل هذا تأملات دقيقة عميقة . وهنا لا نجد

بدأ من تنبيه شاتوبريان إلى أن رينيه – على أثر موت والده – كان فقيراً معدماً وأنه هو وأخته قد وكل أمر الإنفاق عليهما إلى بعض أقاربهما ، وأنه بالتـالى لا يستطيع القيام بنفقات تلك الأسفار الطويلة البعيدة فمن أين يأتى بكل هذا المال الذى يمكنه من تحقيق رغباته ؟ ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن شاتوبريان – فى رواية رينيه – يصور لنا حياته الخاصة ، فينسى أن بطل الرواية كان فقيراً .

ومهما يكن من الأمر فإن الذى لا ريب فيه هو أنه لا يحس فى قرارة نفسه بالسعادة بل هو لا يشعر بالرضى والاطمئنان والسر فى غيبة السعادة من حياته هو أن هذه الرحلة الطويلة قد كشفت له كثيراً من غوامض الوجود ، فأخذ يفكر فى خفاياه ومعمياته حتى صار لا يرى إلا الحياة على حقيقتها ، وأننا لسنا إلا أشياء ضئيلة ، وطفق يسأل نفسه قائلا : « إلى أين ذهبت تلك الشخصيات العظمى التى طالما أحدثت ذلك الضجيج المدوى فى أنحاء المعمورة ؟ » وكأنه يجيب نفسه على هذا التساؤل فيقول : « إن الزمان قد خطا خطوة فتجدد وجه العالم » .

وفى هذه الرحلة يقف بنا فوق قمة بركان «إتْنَا» فى صقلية ليرسم لنا صورة شاب ملىء القلب بالأهواء الحادة ، وقد جلس على حافة فم البركان يندب حظ الفانين من بنى الإنسان الذين يرى مساكنهم فى أسفل الجبل ثم يضيف إلى ندبه قوله « على هذا النحو فى كل حياتى تمثلت أمام عينى خلقاً هائلا ، وغير ممكن الانكشاف وإلى جانبى هوة فاغرة فاها » .

وبعد هذه الرحلة يعود إلى وطنه ، وكله أمل فى أن يكون قد قضى على هذا القلق العنيف المتغلغل فى أعماق نفسه ، وتلك الرغبة الحادة التى تتعقبه فى كل مكان ، ولكنه لا يكاد يستقر فى أرض الوطن حتى يباغته ذلك السلوك الغريب من جانب شقيقته فيحـدث فى نفسه من الاضطراب أضعاف ما كان يشعر به قبل رحيله وكان من بوادر هذا السلوك المدهش أنها عندما تعلم بعودته إلى الوطن واعتزامه زيارتها تكتب إليه ألا يفعل بحجة أنها ليست مستيقنة من استقرارها فى مكان معين بسبب أعمالها وشواغلها وإذ ذاك يحس بأن ذلك الإغضاء من جانبها ، أو ذلك النسيان أو التناسى لحنانهما القديم يجرحه فى صميم فؤاده ، ويحز فى نفسه ، فيعتزم أن يعيش فى الوحدة التامة والعزلة المقفلة فريسة لفقدان الثقة الذى يمزق أواصر قلبه .

وفى هذه العزلة يحس كأن عاطفة سوداء غامضة تنهش فؤاده ، ويخيل إليه أنه قد خلق لأحداث فاجعية تتكشف عن موت وتنتهى إلى سفك دماء ، وأن هذه الأحداث هى التى ستهيئ له أن ينشر جناحيه ويطير نحو أمكنة مجهولة يتوق قلبه إلى رؤيتها ، وهو يرسم لنا هذه العاطفة الملتهبة فيقول : « إنهضى وهبى ودمدمى أيتها العواصف التى يجب أن تحمل رينيه فى أجواء حياة أخرى » ثم هو يسير فى خطوات واسعة ، ووجهه يلتهب حمرة ، والريح تصفر فى شدة دون أن يحس بردا ولا مطرا كأنه مسحور معذب أو كأن به مسامن شيطان قلبه .

وإنه لعلى هذه الحالة إذ بضعف شديد يصيبه فجأة فييئس ويصمم على الانتحار .

وعلى أثر هذا يكتب الى « اميلى » رسالة بقصد تنظيم أعماله ، ولكن هذه الأخيرة – لأنها معتادة على أن تقرأ ما بين طيات القلب الأخوى من أسرار – لا تجد عسرا فى أن تتنبأ بكل ما اعتزمه . وفى الحال تسرع إليه غارقة فى دموعها وتهتف به قائلة : أيها الجاحد أتريد أن تموت وأختك على قيد الحيـاة ؟ أأنت تتهم قلبها ؟ إننى فهمت كل شىء كأنى كنت معك ثم لا تزال به حتى تستقسمه بكل محرجة من

الأيمان ألا يحاول بعد الآن العدوان على حياته ، فلا يسع رينيه إلا أن يعود إلى الحياة ، لأن مشهد هذه الأخت المحبوبة التى تلقت من الطبيعة شيئاً إلهياً كان يسحره ويغمره فى الغبطة والسعادة .

بيد أنه مع الأسف لايلبث أن يلمح أن « أميلى » تفقد الهدوء والصحة وهكذا لاتنقضى بعد ذلك ثلاثة أشهر حتى تأخذ حالتها العامة فى الهبوط يوما بعد يوم وأخيراً ترتحل خفية بعد أن تترك له كتابا حزينا مؤثرا تقول له فيه إنها يجب عليها أن تدخل الدير لتشبع إلهامها الدينى وتذكره بقسمه وتنصح له أن يتزوج لكى يضع حداً لارتباكه الدائم ، أو لينيم هذا الارتباك على أقل تقدير .

وإذ ذاك يستولى اليأس على رينيه ويهرول إلى الدير ليحارب هذا المشروع إذا كان الوقت لا يزال فيه متسع لذلك ، ولكنه لا يستطيع أن ينفرد بها ، لأن قواعد الدير القاسية تحول بينه وبين أمنيته ، فلا يسعه إلا أن يكتفى بمشاهدة الطقوس الأخيرة التى تسجل تخصصها لربها ، وبينما هو منحن على التابوت الذى مدت فيه « اميلى » كما يمد الجثمان فى القبر إشارة إلى تخليها عن عالم الحياة ، إذ به يسمع بضع كلمات تفوه بها أخته فتقع على قلبه وقوع الصاعقة حيث يفهم منها بغتة أنها كانت تحبه حباً غير أخوى ، وأنها تتمنى الموت عقاباً لها .

وأخيراً يشعر رينيه بانفعال مأساوى واقعى ليس من نوع الأخيلة التى تطوف به عادة . وحينئذ تنقض عليه أهواء وأحاسيس قاسية انقضاض الوحش على فريسته ، ولا تزال تنهش قلبه وتقضم فؤاده حتى تنزل به أعنف ألوان التعاسة والشقاء ، ومن العجب أنه إذ يصل إلى هذه الحالة المريرة يفقد الرغبة فى الموت ، ولكنه يصمم على أن يهجر أوروبا نهائياً ويرتحل إلى أمريكا . وهناك يتسلم كتاباً من رئيسة الدير تنبئه فيه بأن « اميلى » قد توفيت ضحية الإحسان والإخلاص فى العناية بمعالجة المصابات بالأدواء المعدية من صاحباتها .

هذا هو موجز تلك الرواية الفاجعية الساحرة ، وفى بطلها المحزون المعذب يرى القارىء جيلا كاملا ماثلا للعيان بصورة أكثر قتومة واسوداداً من صورة « فريز » فإن رينيه — إذ يوصف هذا الوصف الدقيق ، ويحلل ذلك التحليل العميق بأسلوب شاتوبريان الذى لا يقارن — تتجسد فيه كل آلام العصر المكونة من عناصر شديدة التباين ، مليئة بالمفارقات : فمن انهيار فى الثقة واليقين إلى موت عنيف إلى خيبة أمل أخلاقية أو علمية ، إلى أحلام إنسانية سامية لا تكاد تحلق فى عالم النور حتى تهوى كلمى صريعة من ضربات الأحداث الواقعية المتوحشة ، وتنسحق تحت سنابك التجارب العملية ، إلى بأساء قاسية شديدة الوطء ، وترزح تحت القوى الممتازة ، إلى نفى مفعم بالعزلة المريرة الوحشية ، إلى غيبة تامة للمواساة والتأسى ، إلى فقدان كامل للإيمان العملى المنتج ، إلى تأليهية عائمة متموجة لا تحدد غاية ، ولا تعين نهاية إلى أهواء هائجة ثائرة غير ممكنة الإشباع والإرواء . وتلك هى العناصر الأساسية التى يتألف منها مجتمعة جوهر القلق والضجر والحزن والانقباض وما إلى ذلك من الأعاصير التى اجتاحت ذلك العصر ، وأصابت كل أهل ذلك الجيل ، وكانت عنوان تلك الحقبة ، والتى استطاعت ريشة شاتوبريان أن تصورها فى رينيه فتبدع التصوير ، وتحددها فتحكم التحديد .

والآن ماذا ترسم رواية « رينيه » من حقائق واقعية فى حياة شاتوبريان ؟ . لا ريب أنها قد اشتملت على كثير من أحداث حياته الفعلية ، لأنه لا ينبغى أن يغيب عنا أن الصور النثرية أو الشعرية عند هذا الكاتب وأضرابه من أفذاذ الخيال ليست كلها أحلاماً ، أو أوهاماً ، وإنما هى تحتوى من الحقائق على مقدار لا يقل عما تشتمل عليه من أخيلة وإلا لما أبدع فى

التصوير إلى هذا الحد الذى يبهر العقول ويسحر الألباب ، وهو فى تأييد هذا يقول :

وإنما فى الغابات قد تغنيت بالغابات ، وفوق ظهور السفن قد صورت المحيط ، وفى المعسكرات قد تحدثت عن الأسلحة ، وفى المنفى قد عرفت النفى ، وفى البلاطات والقصور الملكية والمجتمعات الرسمية درست الأمراء والسياسة والقوانين » .

ونحن إذا ألقينا نظرة فاحصة على هذه الرواية ألفينا أن أهم ما يلفت الأنظار فيها هو تلك الصورة الأمينة البديعة الصنع لأخلاق مؤلفها وطباعه : فخياله الجامح الذى لا عنان له ، وكبرياؤه التى تتعدى كل مقياس والتى كانت تسعده فى وسط همومه المتراكمة وأحزانه المتعاقبة ، وتدفعه إلى الابتسام فى أثناء وجومه وعبوسه لأن هذه الأرزاء والنكبات ، وتلك الهموم والأحزان كانت — فى رأيه — بمثابة دليل قاطع على سموه على بيئته ما دام أنه موقن بأن الآلام هى الامتياز الموجع والرجحان القاسى للنفوس العالية ، واعتداده بعبقريته إلى حد يزيد على المألوف ، وإيمانه برسالته فى الحياة الأدبية ، كل ذلك يبدو بارزا ملموسا فى شخصية رينيه .

ومن مميزات بطل هذه الرواية أنه لا يكاد يظفر برغبة حتى يحس بضآلتها ، ويتقد شوقا إلى غيرها وكذلك كان المؤلف على وجه الدقة ، إذ أنه رغم هذه الأفئدة الكثيرة المتهالكة على حبه ، المولعة بغرامه وتلك القلوب المتفانية فى الوفاء له ، وهاتيك الشخصيات الرفيعة المتهافتة على مواهبه ومنتجاته تهافت الفراش على الأنوار الساطعة ورغم مكانته الرفيعة التى كانت الملايين تغبطه عليها ، ومجده المعترف به من الجميع دون معارضة ولا نزاع ، رغم هذا كله كانت نفسه مفعمة بالقلق والارتباك والتطور المتوالى الذى لم يكن ينتهى من سؤال حتى يكون قد أعد نفسه لغيره ، وأرسل فى تعقبه جميع قوى الأهواء الحادة التى لا تعرف إلى الهوادة أو إلى الاعتدال سبيلا والتى لا تمكنه من الهدوء والاطمئنان لحظة واحدة .

ومما صوره شاتوبريان فى هذه الرواية من الحقائق الواقعية نشأته فى ذلك القصر الموحش الرهيب ، وكذلك حبه لشقيقته « لوسيل » التى كانت تكبره بأربعة أعوام .

كانت « لوسيل » فتاة غريبة الأطوار ، حادة المزاج ، مذعنة كل الإذعان للعاطفة لا ترضى من أى شىء بأقل من نهايته القصوى ، روحية إلى حد التنسك متحمسة إلى درجة التألم ، وقد أحبت شقيقها حباً عطوفا أساسه الحنان ، وعناصره الوفاء والإخلاص والتفانى والفدائية ، وكان لها فى حياته أثر عميق ، ولقد سجل كاتبنا ذكريات هذا الحب الأخوى المتبادل بأحرف الخلود فى مذكراته التى عنوانها « مذكرات ماوراء الرمس » وفى هذه المذكرات يحدثنا فى أسلوبه الفاتن الساحر بأنه مدين لهذه الأخت بأنها هى التى بعثت فى نفسه للمرة الأولى رسول إلهاماته الشعرية . وقد روى كذلك للسيدة « بولين دى بومون » كثيراً من المواساة التى كانت تلك الأخت تسرى بها عن نفسه منذ الطفولة ، وكيف أنها كانت بالنسبة إليه كأنها دمية أهديت إليه منذ نعومة أظفاره وأنه كان يدعوها « لوسيله » .

بيد أنه بانتهاء تصوير هذه الطفولة العطوفة البريئة النقية ، وتلك العلاقة السامية ، وذلك الوفاء الصافى الرفيع تنتهى المشابهة بين « لوسيل » و « أميلى » فقد كانت « لوسيل » مثلا أعلى فى الفدائية حين نضب الإيثار وطغت الفردية ، ونموذجاً فى التعضيد ، حين انصرف الأصدقاء عن التأييد ، وظلت تناصر أخاها فى أحرج الأوقات ، وتسبقه إلى احتمال الكوارث والنكبات ، واقتحام المواقف الخطرة فى سبيل تعزيز طلباته وإيصاله إلى قصوى غاياته .

نماذج من رواية رينيه

شباب رينيه :

فى كل خريف كنت أعود إلى القصر الأبوى المنتصب فى وسط الغابة على مقربة من بحيرة فى أحد الأقاليم النائية ، وكنت حيياً منطوياً على نفسى أمام أبى ولم أكن أجد نفسى فى حبور وسرور إلا مع أختى « أميلى » لأن اتساقاً عذباً فى المزاج والذوق كان يربطنى بهذه الأخت التى كانت أسن منى قليلا .

كنا نحب أن نتسلق الربوات معاً ، وأن نتنزه فوق صفحة البحيرة ، وأن نجوس خلال الغابات أثناء تساقط الأوراق وتلك هى النزهات التى لا تزال ذكرياتها تملأ نفسى بالسعادة إلى الآن . أوه ! يا سراب الطفولة والوطن ألا تفقد إذن حلاوتك ؟

كنا تارة نسير صامتين مصغيين إلى ذلك الخوار الأصم الصادر عن رياح الخريف أو إلى طقطقة الأوراق اليابسة الحزينة التى نجرجرها تحت خطواتنا ، وتارة أخرى كنا — فى لعباتنا البريئة — نتعقب الخطاف فى المروج ، أو نلاحق قوس قزح فوق التلال المبللة بالأمطار ، وأحياناً أيضاً كنا نغمغم بأشعار تلهمنا إياها مناظر الطبيعة لأنى منذ مطلع شبابى كنت أداعب عرائس الشعر ، ولا يوجد أكثر شاعرية من قلب فى السادسة عشرة فى جدة أهوائه : ولا غرو فصباح الحياة كصباح اليوم مفعم بالنقاء والانسجامات .

وفى أيام الآحاد والأعياد ، طالما سمعت فى الغابة الكبرى رنين الناقوس البعيد يدعو إلى الكنيسة رجال الحقول ، وكنت أصغى فى صمت إلى تلك الدعوة التقية ، وكانت كل انتفاضة من انتفاضات الناقوس تحمل إلى نفسى الساذجة براءة الأخلاق الريفية وهدوء العزلة ، وجمال الدين ، وذلك الاكتئاب الحلو المنبعث عن ذكريات طفولتى الأولى ... كل شئ يوجد فى تلك التخيلات السحرية التى يغمسنا فيها رنين ناقوس مسقط الرأس ، أى الدين والأسرة والوطن والمهد واللحد ، والماضى والمستقبل .

حقاً إن « أميلى » وأنا كنا نستمتع أكثر من أى شخص آخر بهذه الفكر الجدية المليئة بالحنان ، لأنه كان لدى كلينا قليل من الاكتئاب فى أعماق قلبينا ، وكنا قد تلقينا ذلك من الإله أو من أمنا .

الشخصية المعذبة

الرحيل :

لقد صممت على الرحيل ، وفى أثناء توديع شقيقتى احتضنتنى بين ذراعيها بحركة تشبه السرور كما لو كانت سعيدة بمفارقتى ، وبإزاء ذلك لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير ، فى مرارة ، حول زعزعة الصداقة البشرية ، ومع ذلك فقد قذفت بنفسى وحيداً فوق هذا المحيط العاصف من العالم الذى لا أعرف فيه مرفأ ولا مهلكة فزرت أول الأمر الشعوب التى لم تعد باقية وذهبت فجلست فوق أنقاض روما وإغريقا ، تلك البلاد التى دفنت قصورها تحت التراب : واختفت قبور ملوكها تحت الشوك والعوسج . أوه يا قوة الطبيعة ، ويا ضعف الإنسان ، إن أحد الأعشاب يخرق غالباً أصلب رخام هذه القبور التى لم يستطع رفعها أولئك الموتى الأقوياء ...

العودة :

وعبثاً ضاع ما كنت أؤمل أن أعثر عليه فى بلادى مما يهدئ هذا القلق أو تلك الرغبة الحادة التى تلاحقنى فى كل مكان . إن دراسة العالم لم تعرفنى شيئاً ، ومع ذلك فلم تعد لدى حلاوة الجهل .

إن شقيقتى – بوساطة – سلوك غير قابل للشرح – تبدو كأنها تسر بزيادة ضجرى، فقد غادرت باريس قبل عودتى إليها ببضعة أيام وكتبت إليها أننى عازم على اللحاق بها ، فأسرعت إلى الرد على لتصرفنى عن اعتزامى بحجة أنها ليست واثقة من الموضع الذى ستدعوها إليه أعمالها . أية فكرة محزنة دارت بخلدى حينئذ عن الصداقة التى يصيرها الاجتماع فاترة ؟ وتمحوها الفرقة والتى لا تقاوم محنة التعاسة ، وهى أقل من ذلك صلابة أمام السعادة .

وهكذا لم ألبث أن ألفيت نفسى فى وطنى أشد عزلة منى على الأرض الأجنبية فأردت بادىء الأمر أن أقذف بنفسى ردحاً من الزمن فى عالم ليس له عندى دلالة ولا يفهمنى . ولقد كانت نفسى – ولم يكن أى هوى قد أبلاها – تبحث عن شخص يستطيع أن يربطها به ، ولكننى لمحت أننى كنت أعطى أكثر مما آخذ ... وكنت أعامل فى كل مكان على أننى ذو عقلية روائية ولم ألبث أن أحسست بالخجل من الدور الذى كنت أمثله ، وجعلت أتقزز شيئاً فشيئاً من الأشياء والأناسى ، فصممت على أن أنسحب إلى إحدى الضواحى وأن أعيش مجهولا تماماً . ففعلت وأحسست بديا بقدر كاف من السرور فى هذه الحياة الخافتة المستقلة . ولما كنت غير معروف ، فقد جعلت أندمج فى الجماهير التى هى صحراء واسعة من الأناسى .

غير أن هذه الحياة التى سحرتنى أولا ، لم تلبث أن صارت بالنسبة إلى غير محتملة ، فقد كنت أشعر بالتعب من تكرار ذات المناظر وذات الفكر . وقد جعلت أسبر غور قلبى وأسائل نفسى عما أشتهيه . حقاً إنى لم أكن أعرفه ولكنى ظننت فجأة أن الغابات ستكون ممتعة بالنسبة إلى ... وشرعت فى تنفيذ هذا المشروع بالحرارة التى أودعها دائماً كل خططى ، فارتحلت على الفور لكى أدفن نفسى فى كوخ كما سافرت سابقاً لكى أطوف حول العالم .

إن الناس يتهموننى بأن لى أذواقاً متنقلة وبأننى لا أستطيع أن أستمتع وقتاً طويلا حتى يوم واحد ، وبأنى فريسة خيال يسارع إلى الوصول إلى نهاية الملذات كما لو كان دوامها برهة . واحر قلباه إننى أبحث فقط عن هناءة مجهولة تتعقبنى غريزة خاصة بها . هل ذنبى أنى أجد فى كل مكان حدوداً ، وأن كل ما يتم لى لا يصير له فى نظرى أية قيمة ؟ .

يفاجئنى الخريف وأنا فى وسط هذه الريب فأدخل مرحا فى شهور العواصف ، وكنت تارة أتمنى أن أكون أحد أولئك الفرسان المقاتلين الهائمين على وجوههم فى وسط الزوابع والسحب والأشباح ، وكنت تارة أخرى أغبط حظ أحد الرعاة حين أراه يدفىء يديه على نار أعشاب متواضعة أوقدها فى إحدى زوايا الغابة ، وكنت أستمع إلى أغانيه المكتسبة التى تذكرنى بأن أغانى الإنسان الطبيعية هى حزينة حتى حين يعبر عن السعادة . وطالما كنت أتابع بعينى الطيور العابرة التى تطير فوق رأسى فأتخيل الشواطئ المجهولة والمناخات البعيدة التى تتجه إليها ، وأتمنى أن أكون فوق أجنحتها وكانت هناك غريزة خفية تعذبنى فكنت أحس أنى أنا نفسى لست إلا كائناً رحالا ، ولكن صوتا من السماء يبدو أنه يقول لى : « أيها الإنسان إن أوان هجرتك لم يؤن بعد فانتظر حتى تهب ريح الموت ، وحينئذ ستنشر جناحيك وستطير نحو تلك الأصقاع المجهولة التى يبتغيها قلبك .

وإذ ذاك كنت أسير بخطوات واسعة قائلا : « إنهضى سريعا أيتها العواصف المشتهاة التى يجب أن تحمل رينيه إلى أمكنة حياة أخرى .

وقد كان وجهى ملتهباً والريح تصفر فى شعرى ولم أكن أحس بالمطر ولا بالبرد وكنت مسحوراً معذبا قد تسلط على شيطان قلبى ..

يا أسفا : لقد كنت وحيداً على هذه الأرض وأحسست يالتحطم يستولى على جسمى ، وشعرت بأن ذلك التقزز من الحياة الذى كنت أحس به منذ الطفولة يعود إلى فى قوة جديدة ولم ألبث أن صرت لا ألمح وجودى إلا عن طريق عاطفة قوية من الضجر .

حقاً إنى كنت أكافح بعض الوقت ضد آلامى ، ولكن بلا اكتراث ودون أن يكون لدى التصميم الحازم على قهرها . وأخيرا عندما لم أستطع أن أجد دواء لهذا الجرح الغريب الذى أصاب قلبى ، والذى لم يكن فى أى مكان ، وكان فى كل مكان صممت على أن أغادر الحياة .

كان كل شىء يفر منى فى الوقت ذاته : الصداقة والمجتمع والعزلة . لقد جربت كل شىء ، وكان كل شىء شؤما على ، فنبذنى المجتمع ، وهجرتنى « أميلى » فماذا يبقى لى عندما تفشل حتى العزلة فى مهمتها ؟ وهى آخر متكأ كنت أعتمد عليه وقد شعرت أنه هو أيضاً يغوص فى الهوة .

ولما كنت قد صممت على التخلص من عبء الحياة ، فلم أحدد ساعة الرحيل حتى أتذوق اللحظات الأخيرة من الحياة فى عمق ، ومع ذلك فقد حسبت أن من الضرورى أن أتخذ إجـــراءات تتعلق بثروتى وألفيت نفسى مضطراً إلى الكتابة إلى « أميلى » . وفى أثناء ذلك بدت فى رسالتى — على غير قصد منى — بضع شكايات تتعلق بنسيانها إياى . ومما لاريب فيه أنى تركت الحنان الذى يطفو فوق قلبى ، تتضح ملامحه شيئاً فشيئاً . حقا إنى كنت أحسب أنى أخفيت سرى ، ولكن أختى — لتعودها على أن تقرأ ما بين طيات نفسى — لم تلق عناء فى التكهن به فانزعجت من لهجة التضايق التى كانت تسود رسالتى ومن أسئلتى عن أعمال لم أكن أنشغل بها ألبتة . وبدلا من أن تجيب على رسالتى ، أتت إلى فجـــأة لتباغتنى بمقدمها .

إنك — لكى تدرك مقدار مسرتى الأولى عندما رأيت أميلى وكيف كانت فما بعد مرارة آلامى — ينبغى أن تتصور أنها كانت هى الإنسانة الوحيدة التى أحببتها وأن عواطفى كانت تمتزج فيها بحلاوة ذكريات طفولتى

استقبلت إذن أميلى فى نوع من الانجذاب القلبى ، ولم أكن منذ وقت طويل أجد أحداً يفهمنى بحيث أستطيع أن أفتح قلبى أمامه .

ألقت أميلى بنفسها بين ذراعى وهتفت قائلة : « أيها الجحود أتريد أن تموت وأختك موجودة ، وترتاب فى قلبها لا تشرح شيئا ، ولا تعتذر فأنا أعرف كل شىء ، وقد فهمت كل شىء كما لو كنت معك هل أنا التى تريد أن تخدعنى ؟ أنا التى رأيت نشأة عواطفك الأولى ؟ هذه نتيجة طبعك التعس وتقززاتك ومظالمك . أقسم لى — أثناء احتضانى إياك — أقسم لى أن هذه هى المرة الأخيرة التى تسلم نفسك فيها إلى جنونك . أقسم لى أنك لن تحاول أن تعتدى على حياتك أبدا .

كانت أميلى وهى تنطق بهذه الكلمات ، تنظر إلى بإشفاق وحنان ، وتفعم جبهتى بقبلاتها فكانت كأنها أم بل كانت شيئاً آخر أكثر حنانا . وسرعان ما انفتح قلبى مع الأسف لجميع المسرات ، وكنت كأنى طفل لا أطلب إلا المواساة وأذعنت لسلطان أميلى وأديت القسم الذى طلبته ، بل إننى لم أكن أرتاب فى أنه يمكن أن أكون شيئا منذ الآن .

أمضينا أكثر من شهر فى تعويد أنفسنا على بهجة وجودنا معا ، وعندما كنت فى الصباح أستمع إلى صوت أختى — بدلا من أن أجد نفسى وحيدا — كنت أشعر بانتفاضة سرور وسعادة . ولا غرو فإن أميلى قد تلقت من الطبيعة شيئاً إلهياً ، فنفسها كانت مشتملة

على ذات الرشاقة البريئة التى فاز بها جسمها ، ووداعة عواطفها كانت غير متناهية ، وروحها لم يكن فيها شىء سوى اللذة والخيال الحالم ، وكانت كأن قلبها وفكرها وصوتها تتنهد مجتمعة . إنها اقتبست من المرأة الحياء والحب ، ومن الملك النقاء والانسجام .

رأى شاتوبريان فى شباب عصره :

مما لا سبيل إلى الشك فيه أن ما ورد فى هذه الرواية من تصوير رينيه ، أو رسم الاتجاه العام للشباب فى أوائل القرن التاسع عشر لم يكن لوحة صادقة لأفكار شاتوبريان كما زعم بعض السطحيين فى ذلك الحين ، بل إنه كان صرخة غاضبة من جانب ذلك الكاتب الممتاز ضد تلك الميوعة التى ذاعت إذ ذاك واشتد خطرها ، لأنه كان ساخطاً كل السخط على أولئك الشبان المستهترين الذين لا ثبات لهم على شئ ولا مبدأ لهم فى أى أمر ، ولا عقيدة تقيدهم ، وقد بذل جهوداً جبارة فى تصوير تلك الطباع المزعزعة والعقائد المزلزلة ليقزز منها الشباب البرئ المستقيم . ومن آيات ذلك هذه الدروس القاسية التى لقن رينيه إياها على لسان الأب « سويل » – بعد أن استمع إلى تاريخه – والتى جاء فيها مايلى :

« لا شئ فى تاريخك يستحق الإشفاق الذى يبديه الرئيس الجليل نحوك هنا . فأنا أرى فيك شاباً مفعم الرأس بالأوهام ولا يعجبه شئ ، وهو يتوارى عن أعباء المجتمع ليلقى بنفسه إلى أحلام عابثة . لا يكون المرء إنساناً رفيعاً لأنه يرى العالم تحت مظهر بغيض ، لأن المرء لا يمقت الأناسى والحياة إلا بسبب عدم النظر البعيد . مد نظرك إلى أبعد من ذلك فإنك ستصير عما قريب مقتنعا بأن تلك الآلام التى تشكو منها هى عدم محض . ولكن العار هو فى أنك لاتستطيع التفكير فى التعاسة الحقيقية لحياتك دون أن تكون مضطراً إلى الاحمرار . إن كل الطهر والفضيلة والدين وكل تيجان تلك القديسة (الأخت) لا تكاد تجعل حتى فكرة همومك من الأمور المسموح بها . إن أختك كفرت عن خطيئتها ، ولكن إذا كان ينبغى أن أعلن رأيى هنا فإننى أخشى أنه – بوساطة عدالة مفزعة – يبرز من داخل القبر اعتراف يهز نفسك بدورها : ماذا تصنع وحدك فى أعماق الغابات حيث تستهلك أيامك وتهمل جميع واجباتك ؟ ستقول لى : إن قديسين مدفونون فى الصحراء . ولكن هؤلاء قد أتوا إلى الصحراء بدموعهم ، وكانوا يستعملون – فى إطفاء أهوائهم – الزمن الذى قد تضيعه أنت فى إشعال أهوائك أيها الشاب المغرور الذى حسب أن الإنسان يستطيع أن يكتفى بذاته ، إن العزلة رديئة بالنسبة إلى من لا يعيش فيها مع الإله . إنها تضاعف قوى النفس فى ذات الوقت الذى تنتزع فيه منها موضوع كل تمرين . ألحق أن من تلقى قوى يجب أن يخصصها لخدمة أمثاله ، فإذا تركها سدى ، فإنه أولاً يعاقب بشقاء خفى . وقريباً أو بعيداً ترسل إليه السماء عقاباً رهيباً » :